

## الفصل الأول

### عَصْرُ الْفَرَزْدَقِ

١ - الحركة السياسية

#### معاوية الثاني :

لم يعض على تولى معاوية بن يزيد الخلافة إلا بضعة أشهر حتى نودي في دمشق - عاصمة بني أمية - « الصلاة جامعة » . فتقاطر الناس إلى المسجد الكبير من كل فج . واحتشدوا فيه مستغربين متشاورين . يهجس بعضهم إلى بعض متسائلين : هل من ثورة جديدة بعد قتل الحسين ؟ ! هل داهمنا عبد الله ابن الزبير من الحجاز ؟ ! هل هاجمنا الخوارج من الجزيرة ؟ ! ماذا في الجو السياسي يا ترى ؟ ! وفجأة ، ظهر الخليفة الشاب معاوية الثاني قرب الحراب . وطفق يعتلي المنبر درجة درجة بتؤدة وهوادة . وقد ارتسمت على وجهه أمارات الحزن العميق والألم الهادئ . وأشار بيده ليتكلم . فساد الجمع سكوت رهيب تلتقط فيه الأنفاس التقاطاً رقيقاً . وكأنما تحولت كل جارحة فيهم إلى أذن تصيخ السمع وعين تزو إليه بقلق النهم ، فصاح :

« أيها الناس : إن جدّي معاوية نازع الأمر أهله . ومن هو أحقُّ به منه . لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو على بن أبي طالب . وركب بكم ما تعلمون ، حتى أتته منيته . فصار في قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بخطاياهم . ثم تقلد أبي الأمر فكان غير أهل لذلك . وركب هواه ، وأخلفه الأمل ، وقصر به الأجل ، وصار في قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بجرمه » .

ثم أجهش بالبكاء ، وشرق <sup>(١)</sup> بدموعه ، فجرت بين الناس موجة همسات

(١) شرق بالنع : غص به .

وشوشات وتساؤل : ما بال الخليفة يبكي ؟ ؛ ماذا يقصد بهجو أبيه وجدّه  
 والتشهير بهما على ملأ من الناس وإذاعة ذلك من فوق المنبر ؟ ولكن الخليفة قطع  
 هذه الهمسات بقوله : « أيها الناس !! إن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء  
 مصرعه وبؤس منقلبه . وقد قتل عترة رسول الله ، وأباح الحرم ، وضرب الكعبة ؛  
 وما أنا بالمتقلد ولا بالمحتمل تبعاتكم ، فشانكم وأمركم . والله لئن كانت الدنيا خيراً  
 فلقد نلنا منها حظاً ، ولئن كانت شراً لكني ذرية أبي سفيان ما أصابوا .  
 ألا فليصل بالناس حسان بن مالك ، وشاوروا في خلافتكم رحمكم الله !! » .  
 ضجّت دمشق لهذا النزول الفجائي عن العرش . وشاع الخبر في الولايات ،  
 فنامت سطوة بني أمية ، وقويت شوكة الكارهين لحكمهم والطامعين في ملكهم  
 والطموحين للرياسات . . . ومن كان ضلعه مع ابن الزبير وجد الفرصة سانحة  
 لمبايعته كسباً لودّه . واستولى مصعب بن الزبير على العراق باسم أخيه عبد الله ؛  
 ووثب المختار الثقفي بالكوفة ، وامتدت سلطته إلى شمالي الجزيرة بحجة الثأر من  
 قتلة الحسين . والتحق به خلق كثير . وتوالت غزوات الخوارج في الجزيرة .  
 والعراق . واضطربت مصر ، وقلقت فلسطين ، وباتت دمشق في غليان وبحران  
 من الفوضى يحكمها الضحّاك بن قيس نائباً عن الخليفة المعتزل ، ربّما يتم أمر  
 المسلمين فيجمعون على حاكم يرتضونه .

وضجّ بنو أمية لهذه المفاجأة ، وخافوا أن يفلت الحكم من أيديهم وقد بنوه  
 بشقّ النفس . بل لم يكذبتم بناؤه حتى فاجأهم هذا الخليفة الزاهد بمحاولة هدّمه  
 فعرضوا عليه أن يولى أخاه خالداً مكانه ، فقال : « والله ما ذقت حلاوة خلافتكم  
 فلا أتقلد وزرّها »<sup>(١)</sup> فسمي بعضهم إلى بعض يتشاورون ويتبادلون الرأي ورسم  
 الخطط لاستبقاء الحكم في عائلتهم ، وكثر الهمس حولهم ، وتفتحت العيون  
 عليهم ، وروقت حركاتهم ، فأجمعوا أمرهم على عقد مؤتمر في الجابية - وهي  
 ضاحية قريبة من دمشق - ليكونوا قريبين منها بعيدين عنها في آن واحد ، يرقبون

(١) الوزر : الإثم . وكذلك الثقل : يقال وضمت الحرب أوزارها أي انتقلها . وأوزار  
 الحرب أيضاً : آلتها .

الحركات السياسية ولا يراقبون . وحضر المؤتمر آل أبي سفيان وأصهارهم ، كما حضره مروان بن الحكم وأولاده ، وحسان بن مجدل أمير فلسطين ، وعبيد الله بن زياد أمير البصرة ، وكبار الضالعين مع بني أمية . وكان على الضحاك بن قيس أن يحضره معهم غير أنه تخلف عنه في آخر لحظة ، فعرف أن هواه مع ابن الزبير ، وأنه عازم على دعوته إلى دمشق والمناداة به خليفة . وكذلك فعل النعمان ابن بشير عامل حمص ، وزفر بن الحارث رئيس القيسية في قنسرين والجزيرة ... وأدرك المؤتمرون في الجابية أنهم أضاعوا كل شيء ، وأنه لم يبق لهم إلا ضاحية الجابية وحدها ، فاضطربوا اضطراب المسعور ، وحسموا الجدل بسرعة ، واتجهوا إلى شيخ قريش الوقور مروان بن الحكم ، فبايعوه خليفة على أن يلي العهد بعده خالد بن يزيد ، فعمرو بن سعيد بن العاص ، إرضاء لكل فروع بني أمية وأحلافهم وسائر أحزاب دمشق . وبنتى (١) مروان بأم خالد اكتساباً لود بني كلب . وسار بمن تجمّع حوله إلى دمشق فإذا أبوابها قد أغلقت دونه ، وإذا الحرس فوق أسوارها على استعداد للتنكيل بمن تسوّل له نفسه اقتحامها بالقوة ، فتحول عنها مضطراً إلى أدغال الغوطة (٢) الكثة يتوارى فيها خوفاً من كمين . ودارت به الدنيا إذ لم يجد ملجأ يعصمه ، وتخوف على نفسه وأهله وخشى أن ينفصص عنه من بقي على الولاء لبني أمية فيضطرون أن يرتجى على أقدام أعدائه طالباً حمايتهم ورحمتهم .

فلتركة في حيرته قليلاً ولتعد إلى الوراء ملياً لنسير مع التاريخ القصير منذ البعثة حتى مروان ، نستطلع خفايا الأسباب التي أدت بالدولة الإسلامية الناشئة إلى ما أدت إليه من قلق واضطراب وفوضى ، ولما يتكامل نموها بعد .

بقظة وسنان :

جاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم بدين جديد وحدّ به معبود الجزيرة كلها فاتحدت آمال العرب حول هدف أسمي ، وتناسوا الضغائن إلى حين . ولكن

(١) بنى الرجل بالمرأة : تزوجها .

(٢) الغوطة : لقيف من البساتين في ظاهر دمشق .

الطباع المغروسة في النفوس من أجيال طويلة لا يمكن أن تمحوها سنون قليلة مضت بين دهشة الجديده والإعجاب بشخصية النبي اللامعة وعبقريته الفذة . ولم يكده يتحول عنهم حتى اختلفوا في من يتولى الأمر بعده . وانقسموا إلى مهاجرين وأنصار ، ثم انقسم الأنصار إلى أوس وخزرج . . .

وتبوءاً للخلافة أبو بكر . فإذا العرب في الجزيرة قد ارتدوا عن الدين الجديده لأنهم لم يتعودوا الاتحاد العام والطاعة لحكومة . وضغاً (١) شاعرهم الحطينة قائلاً :  
 أطلعنا رسول الله إذ كان بيننا فبا لطفى مابال دين أبي بكر  
 أيورثها بكرأ إذا قام بعده فتلك وأيسم الله قاصمة الظهر  
 وكان على أبي بكر أن يحمد ثورتين في آن واحد : الثورة الأولى ، وهي حروب الردة ، والثورة الثانية ، وهي الكاظمة في نفس على وأنصاره أماً لحرمانهم الخلافة وغيره من ابن أبي قحافة . فأحمد الأولى بسيف الله المسلول خالد بن الوليد ، والثانية بسياسة ابن الخطاب وشدهته . والتاريخ يحدثنا عن هذه وتلك أشياء كثيرة من مناقشة وملاحاة (٢) .

ثم توفي أبو بكر بعد أن توطد الدين والأمن في الجزيرة بعض التوطد . وجاء عمر فساق الجيوش إلى الشام والعراق ومصر ليلهي العرب عن المنازعات الداخلية بحروب خارجية ، وطرد من الجزيرة كل من لم يدخل في الدين ، فلم يجتمع بعده في الجزيرة دينان . وكانت الدولتان المتاخمتان للجزيرة العربية : الفارسية والرومية ، قد هرمتا وتقوض فيهما الخلق الاجتماعي والسياسي ، فدهمهما العرب مباغتين فإذا هما تنهاران أمامهم كما ينهار البنيان المتداعى ، ولم تناسكا إلا بضع سنوات ثم انحنت أمام الإسلام إما بالدخول في الدين ، أو بالجزية ، أو بالانكسار الحربي وما يتبعه من استرقاق الرجال وسبي النساء واكتساب الأموال . . .

ذل هؤلاء الموالى بعد عز ، وطأطأوا رؤوسهم خانعين ، وأخذتهم الدهشة فلم يستفيقوا حتى كان العرب - وهم مستعمروهم بالأمس القريب - سادة يحكمون

(١) ضغاً السنور ضغواً وضغاه : صاح .

(٢) الملاحاة : المنازعة .

في رقابهم وأمواهم ، أغنياء بعد فقر ، حتى منعهم عمر من اقتناء الضياع والزراعة لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم وعبيدهم كل ذلك يدفعه لهم من بيت المال . وقتل عمر بدسيسة من هؤلاء الموالى المتألمين لعزيم النهار وسلطتهم الضائعة ! !

وعهد عمر - وهو في سكرات النزع - إلى مجلس الستة في أن ينتخبوا خليفة له ، فولى مجلس الشورى عثمان بن عفان فنقم عليه بعض القرشيين اختصاصه أقاربه بالمناصب الكبرى ، وفعلت الدسائس فعلها فثار عليه بعض المشاغبين وحوصر عثمان وقتل شر قتلة : شذخ (١) رأسه وبيع (٢) بطنه وقطعت أصابع زوجته نائلة بنت الفرافصة وهي تدافع عنه السيوف ، فاتخذ معاوية - وكان والياً لعثمان على دمشق - قميصه الملطخ بالدم وأصابع نائلة المقطعة مثاراً لدموع أهل الشام وسخطهم على قتله. وبايع الناس لعل في الحجاز والعراق ، ووقف معاوية موقف المعارضة . ثم ثار طلحة والزبير - وهما من الصحابة العشرة المبشرين بالجنة - ومعهما عائشة بنت أبي بكر الصديق وزوجة النبي المفضلة لديه . ثار هؤلاء في وجه علي ومعهم حزبهم من الحجاز ، ففضى عليهم بسرعة في وقعة الجمل . والتفت إلى معاوية فالتقى به عند صيفين بالجزيرة الشامية . وكاد يتغلب عليه لولا أن رفع أصحاب معاوية القرآن طالبين المهادنة والتحكيم ، فتوقف كارهاً ، وانقسم الناس بسبب هذا التحكيم إلى راض به وكاره له ، وانشق عن علي حزب شديد. الوطأة عليه وعلى خصومه هو حزب الخوارج ، ولولا حادث التحكيم لغلب أحد الفريقين ، وانتهت الخصومات الحربية والمنازعات السياسية ، ولتغير وجه التاريخ الإسلامي بغير هذا الشكل الذي نقرؤه الآن .

وقتل الخوارج عالياً فاستتب الأمر لمعاوية بما اشتهر به من حنكة ودراية وسياسة مكيفيلية (٣) ، يتألف الأحزاب بالمال وبالوعد وبالمناصب ثم يدس الدسائس ويحرض ويقتل ويقتال إذا حزبه الأمر .

(١) شذخ : كسر .

(٢) بيع : شق .

(٣) يقال : سياسة مكيفيلية أى مجردة من الضمير والنية الحسنة وتنسب إلى ميكافيل

السياسي والمؤرخ الإيطالي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) ومن أشهر مؤلفاته : « الأمير » و « فن الحرب » .

وسلم الملك لابنه يزيد بعد موته والعرب في أقصى فارس وخراسان وأرمينية ومصر يسرف جنودهم في الفتوح والقتال ، ويسرف أمراؤهم بالبذخ والترف والمال واقتناء الجوارى والضياع . ولكن الثورات لم تنقطع في داخل البلاد من الخوارج وشيعة عليّ وابن الزبير . . . ففضى على هذا الأخير بواقعة الحرة ، وأتبعها من جاء بعده بهدم الكعبة وقتل ابن الزبير وصلبه . وأصبحت الأمة منشقة أحزاباً وشيعاً يقاتل بعضها بعضاً بجنون ، وتتطاحن بقسوة ويطمع كل منها بالملك .

والملاحظ هنا أن الفكرة السياسية قد تطورت ، في برهة الخمسين عاماً التي تلت الهجرة ، تطوراً سريعاً من سياسة قبليّة ضيقة ، إلى فكرة أكثر سعة ووضوحاً ، هي فكرة الملك الإسلامي الكبير . وأصبحت الخلافة ومن هو أحق بها ، مدار الأعياب الساسة والزعماء والطماحين . . . ولكل حزب مؤيدون وأنصار يعضدون فكرته ويدافعون عنها بالسيف تارة وباللسان تارة أخرى . ولكل حزب مبادئ وأهداف وأساليب خاصة تتحلق كلها حول كرسى الخلافة .

وتولى الملك بعد يزيد ابنه معاوية الثاني أشهراً كانت اللدائس تحاك فيها من كل طرف . فتنازل عنه كما رأينا في مطلع البحث . ثم تمت الغلبة لمروان بن الحكم شيخ قريش من بني أمية والإسلام ، تتوالى انتصاراته العسكرية على الحلود في حين تأكل في داخله الثورات الهدامة الدامية ، وتنوشه عضواً ونهشاً بغير رحمة . ولولا حزم مروان وحزم ابنه عبد الملك بعده وأخذهما الناس بالشدّة والصرامة والقسوة لما كان نصيبهما أقل من نصيب عمر وعثمان وعليّ والحسين .

ولقد وقف عبد الملك مرة على المنبر فقال : « من قال لي بعد موقفي هذا : اتق الله ؛ ضربت عنقه !! » بهذا استطاع المروانيون أن يوطدوا ملكهم على مضض من سائر الأحزاب .

### الأحزاب السياسية :

ولنلق نظرة عجيلى على دعاوى كل حزب وأسلوبه ومنهاجه للوصول إلى كرسى الحكم . ففيها تنوير للعصر الذى ندرسه وللشاعر الذى ستلقاه بعد صفحات .

## ( ١ ) الحزب الشيعي :

يستند هذا الحزب إلى قرابة عليّ من النبي وما اتسم به هذا الخليفة الشهم من نبل وشجاعة وعلم وفقه في الدين . وأنه يحكم هذه القرابة العصبية والمصاهرة والروح العالية والعلم أحق بالملك ، وأولاده أحق من أولاد أمية الحاكمين ، وأنه أول من أسلم وكانوا الآخرين ، وأنه أول من عرض نفسه للقتل في سبيل النبي . وأنهم أول من شاكسه وحاربه ومنع دعوته بالعنف والسيف واللسان . . . .  
وعلى هذا الأساس بويع للحسن ، فاشتراه معاوية بالمال ، ثم دس عليه من سمه : ليتخلص منه ومن حزبه . وبويع بعده للحسين ، فثار يزيد ، فقتل وتشنت أنصاره : واشتد يزيد وعماله على هؤلاء الأنصار وقسوا عليهم حتى لم يعودوا يجرؤون على الظهور . فكانوا يُخَبِّتُونَ<sup>(١)</sup> جزعين ، حتى إذا واتهم فرصة ثاروا فيقتلون من جديد . . . . وهكذا دواليك حتى اضطهرهم هذا الضغط إلى اتخاذ مبدأ التقية والتظاهر بغير ما يعتقدون ودس الدسائس والعمل سراً على كسب عطف الناس . والضعيف المظلوم — يجد عادة تأييداً قلبياً في الناس خصوصاً من الناقمين على الحزب الحاكم ، وهذا ما وجده الشيعة في الموالى الفرس الذين رفعت بهم دولة بني العباس بعد ذلك . قيل : « لقي الحسين الفرزدق الشاعر يوماً فسأله : كيف حال الناس ؟ فقال الفرزدق : القلوب معلق والسيوف مع بني أمية والنصر من عند الله » .

ولقد بلغ من قسوة بني أمية عليهم أن كانوا يتساحون بلعن علي والحسين وشيعتهما على المنابر . وخطب عبدالله بن قيس الفهري — عامل يزيد على المدينة — فاطمة بنت الحسين لنفسه فعزله يزيد وغرمه ثلاثين ألف دينار وأمر بتعذيبه حتى رُئى لفقره يسأل الناس وفي عنقه خرقة صرف !!

كما بلغ من عطف الشعراء على آل البيت أن أطلقوا عليهم اسم المظلومين وكانوا يدافعون عنهم ويرفضون جوائزهم . كما فعل الفرزدق يوم مدح زين العابدين بحضرة هشام ، ويفضلونهم على أنفسهم ويتألمون لألمهم — يقول شاعرهم أبو الحسين الجزار :

( ١ ) أخبت القوم : صاروا في الخبت وهو ما اطمان واتسع من الأرض .

ويعود عاشوراء يذكرفى رزة الحسين فليت لم يعد  
ويدأ به لشهامة خضبت مقطوعة من زندها بيدى

### ( ب ) حزب بنى أمية :

يدعى الأمويين أن الخلافة وصلت إلى عثمان بطريق قانونية . ثم قتل عنها ظلاماً ، فهم ورثته الشرعيون لأنهم أقرب الناس إليه . وهذا ما كان يردده شعراؤهم بصورة خاصة . ومن أراد أن يتملقهم من شعراء الأحزاب الأخرى . حتى شعراء الحزب الشيعى . فالفرزدق مثلاً يردد ذكر عثمان كثيراً فى أماديجه لبنى أمية فيقول فى جملة ما قال :

خلافة لم تكن غصباً مشورتها أرسى قواعدها الرحمن ذو النعم  
كانت لعثمان لم يظلم خلافتها فاتتهك الناس منه أعظم الحرم

### ( ج ) الحزب الزبيرى :

لم يكن هذا الحزب يستند إلى إرث ولا إلى دعوى قرابة من الرسول . بل إلى مكانه وشرفه فقط . أليسوا من قريش وهى فى ذروة العرب ؟ فلماذا يتحكم بنو أمية بالملك دونهم ويقصونهم عن المراتب العليا ؟ ويبدو أن هذا الحزب انتعش بعد مقتل الحسين إذ انضم إليه بعض الشيعة والموالى الناقمين على بنى أمية نكاية بهم . فقضى عليه الحجاج قضاء سريعاً واجتته (١) من أصوله فلم يسمع له بعد قتل ابن الزبير حسيس ، بل طفق الشعراء فى بعض الأحيان يتحاملون عليه تحاملاً لثيماً ، وذلك إرضاء لحزب بنى أمية الحاكم طبعاً بما عندهم من دنيا (٢) .

### ( د ) حزب الخوارج :

انشق هذا الحزب عن على بعد حادث التحكيم فى صفين . ووجته أن معاوية مغتصب لا تجوز طاعته ، وأن الخلافة لعلى . ولكنه حينما قبل التحكيم أصبح

(١) اجتث : استأصل .

(٢) انظر فى المنتخبات الفصل الرابع من هذا الكتاب .

كمن ينزل عنها بإرادته ، وهي ثوب ألبسه الله إياه فخلعه ، ولذلك تخلع الطاعة له !!  
 وأن الحكم بعد هذا لله وحده . وانسحبوا إلى العراق ثم انتشروا في الأحساء  
 ونجد واليامة وتشتتوا شيعاً وأحزاباً وأخذوا يمعنون تقتيلاً وتفظيلاً . وواو عليهم أمراء  
 منهم كانوا يسمونهم « أمراء المؤمنين » ويظهر أن الفطرة البدوية فيهم لم يستطع  
 الإسلام لها صقلاً وجلاء بل أخذوه على ظاهره وآمنوا به إيماناً عميقاً من دون تفكير ،  
 وكانوا يقاتلون بشجاعة نادرة حتى كادوا يوهنون ملك بني أمية ، لولا الحجاج  
 والمهلب ابن صفرة . وقد بقيت الحياة تخفق في هذا الحزب برغم كثرة من  
 قتل منهم حتى أواخر الدولة العباسية . ولا يزال منهم قسم إلى الآن في شرقي  
 الجزيرة العربية على شاطئ الخليج الفارسي وفي الجزيرة الخضراء بتونس وفي منطقة  
 زوارة بطرابلس الغرب ، ويسمون أنفسهم المذهب الخامس ، وبينهم حتى الآن  
 صلوات قوية ومكاتبات . وهم في نهاية الأدب والحشمة والطف والتدين .

### مروان بن الحكم :

لنعد إلى مروان فقد تركناه طويلاً مع حفنة من أصحابه يسمونه خليفة  
 للمسلمين وأميراً للمؤمنين وهو لا يملك شبراً من أرض . لنعد إليه فقد تركناه يتسكع  
 حول دمشق يحاول دخولها فلا يستطيع وفيها نائب عن الضحاك مصمم على الدفاع  
 عنها إلى النهاية ، وحاول اللجوء إلى جهة مأمونة فتحير . إن أعداءه من الحزب  
 الزبيرى وأعدائهم مسيطرون في الحجاز ومصر والعراق وسوريا . وكان الضحاك قد  
 انسحب بنى قيس إلى مرج راهط شرقي دمشق لجسر مروان بعيداً عنها ومناوشته  
 لقتله والتخلص منه وإعلان خلافة ابن الزبير خالصة نقية . فلم يجد مروان بداً  
 من أن يصادمه مصادمة اليائس يؤديه الأمويون وبنوكلب فقط . فالتحما بموقعة  
 فاصلة تشتت بعدها بنو قيس واستحكمت العداء الخالد بينهما بين بنى كلب « من  
 قبائل الجنوب » وبين القيسيين وهم من « قبائل الشمال » . وتوطدت سمعة مروان في  
 الضواحي وفتحت له دمشق أبوابها فدخلها دخول الفاتح واستقر فيها على حذر .  
 ونظر ، فإذا العراق والحجاز واليمن ومصر وفلسطين في قبضة ابن الزبير . وخراسان  
 أعلنت استقلالها وقرقيسا والجزيرة في يد القيسيين ، والكوفة في يد المختار الثقفي .

وهو بينهم كالجزيرة الصغيرة في المحيط الصاحب . وكان من الحزم أن رسم خطة عسكرية بارعة طبقها في الحال . أرسل إلى الحجاز جيشاً يناوش ابن الزبير . ناوشة يلهميه بها عن الجيش الآخر الذي سار به مروان بنفسه إلى مصر . فافتتحها واستخلف عليها ابنه عبد العزيز . وعاد إلى دمشق ليستمع إلى نكبة الجيش الذي بعث به إلى الحجاز وتشتته في الربدة ، وأنه لم ينج منه إلا قليل . بينهم شاب أخفض دقيق الجسم كان يحمل العلم ، فلما رأى السلامة في الفرار ألقى العلم وولى لا يلتفت إلى ورائه . واشتهر هذا الشاب النحيل بعد ذلك باسم الحجاج . وكان له شأن أي شأن في سياسة الدولة الأموية وتوطيد أركانها .

عاد مروان إلى دمشق فإذا عمرو بن الأشدق يحاول الثوب بها فتخلص منه بسرعة وحزم . وعزل خالداً عن ولاية العهد . وعين ابنه عبد الملك بدلاً منه ثم عبدالعزيز . ومات وفي نفسه ألم أن لم يستطع القضاء على ابن الزبير الذي طرده من الحجاز يوم أعلن استقلاله فيه . وقيل خنقته أم خالد وبعض جوارها تحت فراش لم يتزحزح عن حنقه حتى تزحزحت روحه عن جسده .

### عبد الملك بن مروان :

تولى الخلافة عام ٦٥ هـ وعيون الطامعين بالملك تحوم حوله لتسقط منه غرة . وأخذ على نفسه تنفيذ برنامج والده والقضاء على أعدائه واحداً بعد واحد . سار إلى قنسرين للقاء زفر . وما كاد يخرج من دمشق حتى ثار فيها عمرو بن سعيد ابن العاص ، ولى العهد بموجب مؤتمر الحابية ، فأسرع في العودة إليه وقتله . ثم ارتد إلى قنسرين فصالح زفر زعيم القيسية الجبار ليأمن جانبه إذا حارب الزبير ، والتفت إلى العراق فقتل مصعب بن الزبير واستولى على الكوفة والبصرة ولكنه خسر قائده الباسل عبيد الله بن زياد فاتح دمشق لأبيه مروان . ورجع إلى دمشق يفكر في إتمام البرنامج بفتح الحجاز مركز الثورات القرشية . وجلس يوماً يشاور أصدقاءه في ابن الزبير فقال له هذا الشاب الذي رأيناه في الربدة جندياً فراراً : « أنا له يا أمير المؤمنين ، فلقد رأيت في منامى أنى سلخته من جلده

وقطعت رأسه . فنظر إليه عبدالمملك نظرة المتفحص ، وكأنما أدرك فيه سرّاً من أسرار العبقريّة الحربيّة والخبروت . فجهزه في ألفين وحمله أماناً لعبد الله بن الزبير يسده إياه إذا أطاع ودخل في الجماعة وإلاّ فالسيف .

أرسل عبد الملك الحجاج إلى الحجاز عام ٧٠ هجرية والتفت إلى الخوارج في الجزيرة والعراق واليمامة يناضل هنا ويناضل هناك ليعيد مجد بني أمية : ذلك المجد الذي تعب بينائه معاوية الأول الداهية المكيفيلي في سنين كثيرة فقوضته بلاهة معاوية الثاني في دقيقتين .

## ٢ - البيئة الاجتماعية

لم يستطع الإسلام - كما رأينا - تهذيب العصبية القبلية وإصلاح النفوس البدوية دفعة واحدة ، لأن العثرات السياسيّة كانت تقف في طريقه دائماً . حتى الجيوش المحاربة على الحدود - وهي المفروض فيها التجرد المطلق للإسلام الصافي وحده - لم تكن تستطيع التخلص من النعرة «العشائرية» ، فبقى الفرد ذاتياً في عشيرته يعتز بها ويحامي عنها ويفاخر بها ، انظار إلى قول سلمة بن زياد بن أبي سفيان :

وإن تقهروني حين غابت عشيرتي فمن عجب الأيام أن تقهروا مثلي !!  
وإلى قصة ذلك الباهلي الذي لقيه الفرزدق في المربد <sup>(١)</sup> يبيع نجياً من سمن فسامه الفرزدق فعرفه الباهلي فربحه إياه على أن يهب له الفرزدق أعراض قومه فلا يشتمهم !!

وإلى تلك المرأة الباهلية ، سوداء بنت العجيل ، التي استوهبت الفرزدق أعراض بني الحبال فقال :

وهبت لسوداء الحبال فأصبحت وقد علققت مني سيور التمام  
ألا يدل هذا على أن الشعور القومي المتسع لم يشمل نفوس الناس زمن بني

(١) المربد : إحدى أسواق العرب المشهورة قرب البصرة .

أمية ، وأن عقليتهم البدوية لم تتغير إلا قليلاً ، وأن كبار الفقهاء لا يمثلون المجتمع العربي تمثيلاً صحيحاً تاماً . . بل يمثلون طبقة خاصة منه فقط ، وأن الذي يمثل الشعب أصدق تمثيل هم الشعراء ، صحف ذلك الزمان السيارة .

والفرزدق صورة للحياة الأموية في الناس ، كما أن الحجاج صورة صحيحة للحزب الحاكم ، بل إن صورة الفرزدق نفسه لا تتم إلا بالتعرف إلى الحجاج ودراسة عصر الحجاج ، ولا نقول عصر عبد الملك أو سليمان أو هشام ، لأن الحجاج كان إمبراطوراً في زى عامل ودكتاتوراً في صورة موظف . حكم النصف الشرق من المملكة الأموية ، وافتتح الهند والسند والبلوج والأفغان وبلاد الترك وما وراء النهر والصين . . إلخ ، وعين عليها نواباً وملوكاً يأتمرون بأمره ويطيعون إشارته . ومات في عزه بعد أن وطد الملك ابنى أمية وشاده على ركن ركين وأساس متين . وخلف في السياسة والإدارة والثقافة آثاراً لا تمحى عن الزمن .

دخل الحجاج العراق والفضى السياسية تنوشها من كل جانب فوطدها بعزم وحزم ودهاء وقسوة . أما الفوضى الأخلاقية فحدث عنها ولا حرج . قيل بلغ من جرأة فساق البصرة زمن زياد أن كانوا يقبضون على المرأة في الطريق . ويسمحون لها أن تنادى ثلاثة أصوات فإن أجابها أحد أطلقوها ، وإن لم يغنها أحد حلت لهم ! وأما التعدى على أموال الناس واللصوصية وقطع الطرق ونيش القبور فأكثر . انظر إلى قولهم يمدحون مدير شرطة الحجاج ، فإنك مستنبط منها صورة صحيحة لمستوى العراق الأخلاقي لا شك فيها . قال الشعبي : « فوالله ما رأيت قط صاحب شرطة مثله . كان لا يجبس إلا في دين . وكان إذا أتى برجل نقب على قوم وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره ، وكان إذا أتى برجل نباش حفر له قبراً ودفنه فيه حياً . وإذا جرى برجل قاتل وأظهر سلاحاً قطع يده ، فربما أقام أربعين يوماً لا يؤتى إليه بأحد » .

هذه الفوضى السياسية والشذوذ الأخلاقي والانهايار الاجتماعى جعل الولاية يقسون على العراق قسوة جبارة لا رحمة فيها ولا شفقة ، أضف إلى ذلك الرغبة في توطيد الملك والضغط على الأحزاب المخالفة للحزب الحاكم وإخبات نفسها

وإخضاعها للملكية المستبدة بعد أن كانت قبلية مستقلة . وليس من اليسير تحويل مجرى السيل الاجتماعي من بداعة مطلقة إلى عبودية مطلقة في زمن يسير .

\* \* \*

كانت العراق مثلاً في تضارب الآراء حتى كان كل فرد منهم أمة وحده ، له آراؤه وتاريخه وأحلامه وطموحه . وفي هذا المجتمع الموار<sup>(١)</sup> تجمعت رسوب مختلفة لأحزاب متباينة دينية وسياسية وثقافية وعرقية . ففهم العربي الخالص والمتأثر بالفرس والحر والعبد والهجين . . . وفهم الزبيرى والمروانى والعلوى والتوآب والخارجى والسنى والكيسيانى والمختارى والسبئى والمرجئى . وفهم من يميل إلى الأزارقة أو النجدات أو البيهسية أو الصفرية أو الإباضية من مذاهب الخوارج . . . كل حزب سياسى أو دينى ، بل كل فكرة أومضت فى العراق تركت رسوبها فيه ، فجاء من هذه الكتلة البشرية المختلطة مولود مشوه عجيب الحلقة رائع المنظر نحيف المنبر ، هو المجتمع العراق المائل أمام الحجاج يوم وقف على منبر الكوفة يهدّد ويتوعد ويعلن الأحكام العرفية التى استمرت من بعد عشرين عاماً . وزادتها شدة وعنفاً الثورات المتوالية التى قام بها ابن الحارود ومطرف بن المغيرة وعبد الرحمن بن الأشعث الذى بلغ عدد الثائرين معه نحو مئى ألف مقاتل ، مما جعل الحجاج يرتكس عليهم بوحشيته حتى أدبهم وأخضعهم للأمويين وفتح بهم الشرق كله حتى الصين .

وبعد ؛ أرانى أطلت قليلاً فى وصف العصر الإسلامى الأول وتعرّضت لأحداثه الجسام ولبعض شخصياته بالشرح حيناً وبالتلميح حيناً آخر ، ولم أتعرض للقسم الغربى من المملكة الإسلامية بإشارة، وما ذلك عن إهمال. لكن الشاعر الذى سنتحدث عنه بعد، لم يتأثر أى أثر بمجى حوادثه لبعده عنه وعن مشاغله ؛ فهو لا يمثل إلا هذا الجزء الشرقى من الإمبراطورية بعروبتة وسياسته وأخلاقه فى الشام والعراق والجزيرة العربية .

(١) الموار : المانح المضطرب .

### ٣ - السنة الشعراء

انطلقت السنة الشعراء أوائل دولة بني أمية ، تؤيد الأحزاب السياسية أو تعارضها فانتعش الشعر السياسي وأصبح الشاعر لا يمثل قبيلة واحدة فقط بل يمثل حزباً كاملاً تنطوي تحته قبائل مختلفة . بل ربما هجا بطناً أو فخذاً من قبيلته في حزب معاد كالذي وقع بين جرير والفرزدق وكلاهما من تميم . ولم تكن الحرب كلامية فحسب ، ولا انتهى الأمر عند السباب والشتائم ، فالتاريخ يحدثنا عن كثير من حوادث الاغتيالات والثورات الدامية والانتقام والتشريد عن الماء . . . وكان من مصلحة الحزب الحاكم من أمية أن يشير هذه الحرب بين الأحزاب ويهيج العصبية ليلهيهم عنه ، شأن السياسي البارع يفرق الأحزاب ليسودها جميعاً وليكون كل منها محتاجاً إليه . انظر إلى سليمان بن عبد الملك وقد اجتمع عنده مرة الفرزدق وجرير وكثير وابن الرقاع فاستنشدهم من فخرهم فبدرهم الفرزدق مرتجلاً بفخر متشامخ .

فقال لهم سليمان : لا تنطقوا !! والله ما ترك لكم مقالاً . ولم يكن قصد سليمان بهذا إلا أن يورث نار الحقد والبغضاء في قلوبهم وكل واحد منهم يمثل حزبه . وهذا ما يوضح لنا كثرة شعراء الهجاء والإفحاش فيه وتسامح الحكومة والناس بسماع بذاءته وسقطه . فليس فيه تصاوير ، إلا نادراً ولا أطاريف ولا فن . ولكنه سباب فاحش وألفاظ وقحة قدرة تعافها النفس المؤدبة . ويفسر لنا كذلك دوام حرب التهاجي أربعين عاماً بين جرير والفرزدق لا تهدأ حتى تثور ولا تفر حتى تتفجر ، يسند هذا جماعته وشعراؤه ويسند ذاك جماعته وشعراؤه . ولعل هذا ما يفسر لنا أيضاً وضع أحد أصحاب الفرزدق جائزة قدرها أربعة آلاف درهم وقرس لن يفضل صاحبه على جرير . وهو إنما يريد إسقاط الحزب المعادي بإسقاط شاعره .